الكِفْل

تعريفهُ ووصفهُ

لحضرة الاب انستاس الكرملي البغدادي

قد وردت لفظة الكِفْل مراراً في المشرق (١ : ٩٢٠ الخ) بصورة « الكفيل » والصواب ان يقال فيها الكفل بكَسْر فسكُون. والسبب في ذلك: ١ لان هذا الاسم معروف بهذه الصورة في محلِّهِ وفي بغداد ونواحيها. و٢ لان العَرَب منذ ايَّام قديمةٍ حتى قبل الإسلام عرفتهُ بهذا اللفظ وكذا عرفهُ يهود بلاد بابل. ويلفظ هذه الكلمة اهلُ البادية: « الچفْل والچفِل » بالجيم الفارسيَّة كما هي العادة عندهم في لفظ الكاف وبكسر الاوّل واسكان الثاني او بكسر الاوّل والثاني. لكنَّنا لم نسمع قطّ احداً يقول: « الكَفيل او الچفيل » بل الكِفل بكسرتين لتسهيل اللفظ عند الوقف. وعن هذا اللفظ نقلها الافرنج بهذه الصُوَر المتقلِّبة التي تلاعبوا بها كلَّ التلاعب وهي هذه: Kéfel, kefel, kefil, kifil, chefel, chefil, chfil ونظنّ ان الاب رتّوال في مقالتهِ الفريدة عن الزبّاء نقل الكفيل عن اللفظة kefil لان اغلب الافرنج يكتبونها بهذه الصورة والبقية نادرة. فاحفظ كل ذلك

آراء القدماء في الكِفْل

واذ قد فتحنا الكلام عن الكفْل فلا بأس من ان نُورد لمعةً عنهُ اتماماً للفائدة اللغويَّة والتاريخيَّة. فاقول: الكفل ناحية من نواحي قضاء لِوَاء كَرْبَلا من ولاية بغداد وكان الاصل في لفظة الكفل ان يقال: « مَزار او مدفن ذي الكِفْل » فحذف المزار او المدفن او ما جاء بمعناها لاشتهار ذلك بين الناس فقيل فيهِ: « ذو أو ذي الكفْل » حسب التقدير الذي تريدهُ. ثم حذفت لفظة « ذي » من باب حذف المضاف وابقاء المضاف اليهِ. كما قالوا في: « كَحَلتُ عَيْنَ الرَّجُل » « كَحَلْتُ الرَّجُل » بحذف لفظة المضاف اي « عَيْنَ ». قال صاحب المصباح: « والاصل: كحلتُ عَيْن الرُجل فحذف واقيم المضاف اليهِ مقامهُ لفهم المعنى اه. او من باب تسمية الشيء باسم ما يجاورهُ كما

قالوا في: « ذات الطُّفْيَة » الطفيةَ . قال الجوهري: « وربما قيل لهذه الحيَّة (ذات الطُّفيَة) الطُّفيَة على معنى ذات طُفيَةٍ والجمع الطُّفَى . وقال:

وهم يذلُّونها من بعد عزَّتها كما تُذَلُّ الطُّفَى من رُقيَة الراقي

اي ذوات الطُّفَى . وقد يُسمَّى الشيء باسم ما يجاورهُ (اه عن التاج بحرفهِ الواحد)

امَّا من هو « ذو الكفل » فقد اختلف العرب فيهِ . وقد رأيتُ ان صاحب تاج العروس قد جمع في كتابهِ اشهر من وقع الوهم فيهم قال : « ذو الكِفْل نبيٌّ من أنبياء بني إسرائيل . وقيل هو من ذريَّة ابرٰهيم صلوات الله عليهما . وقيل هو إلياس . وقيل هو زكريَّا . اقوالٌ ذكرها الفاسيُّ في شرح الدلائل . قيل : بُعِثَ الى ملكٍ اسمهُ كنعانُ . فدعاهُ الى الايمان . وكفل لهُ بالجنَّة وكتب لهُ بالكفالة . وقال الثعالبي في المضاف والمنسوب : « اختلف المفسرون في اسمهِ . فقيل: هو بشير بن أيوب بعثهُ الله رسولًا بعد أيوب وكان مُقامهُ بالشأم وقبرهُ في قرية كِفْل حارسَ من اعمال نابُلُس . ذكرهُ المؤيد صاحب حماة . وقيل كان عبدًا صالحًا ذُكر مع الانبياء لانَّ علمهُ كعلمهم . والاكثر على نبوَّتهِ . وقيل اسمهُ : الياس . وقيل: يوشع . وقيل: زكريَّا . وقيل . حِزْقيلُ . لانَّهُ تكفَّل سبعين نبيًّا . حكاهُ عن معالم التنزيل عن الحسن ومقاتل» . انتهى . وقيل سُمِّي بهِ لانهُ كفل بمائة ركعة كلَّ يوم فوفى بما كفل . وقيل: لانهُ كان يلبس كساء كالكِفْل . وقال الزَّجاج: « لأنهُ تكفَّل بامر نبيٍّ في امَّتهِ فقام بما يجب فيهم . وقيل: تكفَّل بعمل رجلٍ صالح فقام بهِ » . وقال الفاسيُّ في شرح الدلائل: « ومعناهُ ذو الحظِّ من الله تعالى . وقيل: لتكفُّلهِ للبسع بصيام النهار وقيام الليل وان لا يغضب » اه عنهُ بحرفهِ

رأينا في الكِفْل

وقد اوردنا كلَّ ذلك ليعلم القُرَّاء أنَّ هذهِ خلاصةُ لُبابِ كثيرٍ من آراء الاقدمين في هذا الصَّدد . فمن هذه الاقوال المتعدِّدة يجب على الباحث ان يتشمَّم روائح التواريخ الصحيحة . ويتنسَّم فواغي الاقوال الفصيحة . ويقابلها بالتقاليد المتداولة بين الناس . المحفوظة بينهم حفظًا ينفي عنهم كل تلبيسٍ او التباس . ويَرِدَ مناهل الحقائق الصافية . ويُعارض محصَّلهُ بما جاء عند ثقاتهم من النقول الشافية . لان التواتُرَ

في الامور التاريخيَّـة سندٌ ثبتٌ يعوَّل عليهِ ويُركن اليهِ. ومن ثمَّ فقد رأينا ان ذا الكِفل جاء بمعنى النبي حزقيل او حزقيال. اذ تنطبق عليـهِ جميع القواعد التي ذكرناها

١ً لان التواتر او التقليد عندنا يقول بان ذا الكفل هو حزقيال ويشهد على ذلك المزار الموجود باسم ذي الكفل وهو مزار النبي حزقيال كما هو مشهور في هذه البلاد. وهذا امر لا يحتمل ريبًا ولا شكًّا

٢ً ان لفظة الكِفل مأخوذة من معنى الكفالة ويتحصَّل من الكتاب الكريم في مواضع شتى منهُ ان حزقيل كفل امتهُ بالنجاة من إسر بابل او السبي او الجلاء بل وكفلها بمجيء المسيح فادي البشر طالبًا من أبناء جلدتهِ ان ينهجوا منهج الحقّ والانقياد لكلامهِ العزيز. وقد تنبَّأ ببقاء الامور على حالتها المشؤومة ان لم ترجع الامة عن غيّها. فمن هذه النبوءات ما جاء في الاصحاح الاوَّل من سِفْر نبوءتهِ. وما جاء في الاصحاح الرابع والثاني عشر والتاسع والعشرين والثلاثين والواحد والثلاثين من نبوءتهِ وهلمَّ جرًّا في سائر الفُصول

٣ً شواهد العلماء والسيَّاح تؤيّد تواتر المتوطنين في هـذه البلاد بان مَزار ذي الكفل هو مزار النبي حزقيال. فمن جملة هذه الشواهد شهادات الافرنج الذين جاوزوا هذه الرُبوع في هذه السنين الأخيرة لكن لمَّا كانت حديثة الكتابة والحصول عليهـا سهل عَدلنا عن ذكرها. غير انَّنا نجتزئ بذكر واحدةٍ منها وهي شهادة الرحَّالة اوشار إلوَى (Eucher-Eloi) فانهُ كان في ٢٤ ايار سنة ١٨٣٥ على الطريق المؤدية من بغداد الى الحلَّة عند خان ازاد. قال: « ووجدنا على طريقنا زوافاتٍ من اليهود والعجم والهنود والعرب يذهبون للزيارة. فكان الاوَّلون منهم يتوجَّهون الى الكفل الذي فيهِ قبر حزقيال الذي مات في جلاء بابل. والآخرون يتوجَّهون الى كربلا » وفي ٢٥ من ذاك الشهر بعد ان القى عَصاهُ في الحلَّة وهي بابل القديمة. قال: وشددنا الأثقال غُنْيَةً لتفقُّد برج نمرود الذي يُظنّ انَّهُ هيكل البعـل... ومن ذُروة أطلال هذا الهيكل رأيتُ الكفل الذي فيهِ قبر حِزقيال (١ » اه بحرفهِ

(١ Eucher-Eloi : *Relations de voyage en Orient*, Paris 1813. - p. 222. 224

وقال غيرهُ قبلهُ وهو الربّاني بنيامين التُودلي (Benjamin de Tudèle) المتوفى سنة ١١٧٣ ما تعريبهُ: « ورأيتُ على بُعد بضعة فراسخ من بغداد مزارًا فاخرًا وفوقهُ مكتبة شهيرة. وفي هذا المزار ضريح حزقيال النبي وهو مزار يختلف اليهِ كل سنة رؤساء السَبي ومعهم حاشية لا يُدرك الطَرْف طَرَفها وهو معهد عبادةٍ ليس لليهود فقط بل ايضًا للعجم واهل مادي. ومن المسلمين من يأتون بالنذور والهدايا وفاء بعهدهم. وشعوب هؤلاء الأقوام يكرمون كل الاكرام هذا المزار حتى ان الجيوش العسكرية لا تقربهُ اجلالًا لهُ. وهناك مصباح يشتعل ليلَ نهارَ على قبرهِ ورئيس يهود بغداد يتعهّد زيتهُ. وهذا المقام يُزار الى يومنا هذا »

« واما المكتبة التي كانت فيهِ فيقول عنها انها كانت كثيرة الكُتُب. وكلُّ من يموت عن غير عقب يُغني المكتبة بما يورثها من كتب حتى انهُ على ما قيل لي انهُ كان يُرى في هذه الخزانة العلمية النسخة الأمّ من نبوءات هذا النبي وكان قد كتبها يدهِ ». اه. فهذه تفاصيل مفيدة غاية الافادة وغريبة في بابها وموَيّدة لاقاويل اليهود الى يومنا هذا ومظهرها مظهر حقٍ لا خداع فيهِ

وقد قال غيرهُ من الكتبة الاقدمين: « انَّ جثّة النبيّ حزقيال وُضعت في المغارة التي وُضع فيها جُثمان سام وارفخشاد على ضفّة الفرات. وقد قال بنيامين التُودلي المذكور قُبيل هذا: « انَّ هذا القبر هو وراء الكنيس بين الفرات والخابُور تحت قُبّة بناها الملك يكونيا وفيهِ السفر الكريم الذي كتبهُ بيدهِ على ما يزعمهُ اليهود وهم يقرأونهُ كل سنة في عيد الكَبور (١ . وقد قال هذا القول تقريبًا القديس ابيفانيوس وهذا نصّ كلامهِ: « ان قتل حزقيال كان على يد رئيس أُمّة اليهود إذ اغتاظ من النبيّ بما كان يُندّد بهِ ثم دُفن في المغارة التي دُفن فيها سام وارفخشاد من أجداد ابرهيم (٢ »

غير أن احد الكتبة الذي كان يَغْني في عهد قسطنطين الملك يقول ان حزقيال دُفن في بيت لحم في المحلّ الذي دُفن فيهِ يَسّى وداود وسليمان. غير ان شهادة هذا المؤلف ليست واقفةً على سندٍ مكينٍ. اما شهادة القديس ابيفانيوس فهي اقبل في الكنيسة من الشهادة المتقدّم ذكرها لأنها قائمة على رُكن ثابتٍ كالرَكين. والقديس

(١ Benjamin de Tudèle, apud Migne : *Dict. de la Bible*, p. 414 et 546

(٢ Epiphanius : *de morte Prophetarum*. T. II, p. 241.

ايفانيوس المذكور هو أقدم عهدًا بقليل من الكاتب المومأ اليهِ

وكنَّا نودّ ان نورد الشواهد الكثيرة التي جاءت في هذا الصدد بكرور الدُهور والعُصُور وهي كلها تؤيد هذا التواتر عند اليهود والنصارى والعرَب والعجم القائل بانَّ في الكِفل مزار النبي حزقيال لكن ليس في ايراد هذه الشواهد امرٌ ذو بال ولهذا اجترأنا بذكر شاهدٍ واحدٍ من الأقدمين وشاهدٍ آخر من اهل القرون الوسطى وشاهدٍ ثالث من أهل غُرَّة هذا القَرْن

امَّا حالة مزار ذي الكفل في هذه الأيام فخذ اخبارها عني: الكفل على ما هو عليهِ اليوم قرية واقعة على الضفَّة اليُسرى من نهر الهنديَّة على بُعد ٣٥ فرسخًا من الجنوب الغربيّ من بغداد ويبلغ سكَّانها الحالِيُّون بموجب الإحصاء الأخير ٢٩٨٠ من المتمكنين فيها على الوجه الآتي: ٥٥٠ من اهل السنَّة و ١٧٠٠ من الشيعة و ٧٣٠ من اليهود

وفي سنة ١٨٤٨ م استولت على هذا المزار عشيرة من عشائر البدو واتَّخذتهُ لها مسكنى. فاخذت حالة المزار تمشي القهقرى. وكان كلَّما سقط شيء من حيطانهِ بقي على حالهِ من الاهمال فتداعت الجُدران. واصبح العُمران في خبر كان. وتجديد البُنيان. في زوايا النسيان. ثم ان زوَّار اليهود اخذوا يتناقصون سنةً عن سنةٍ لان اولئك القوم كانوا قد ضربوا على كل زائرٍ منهم مبلغًا فاحشًا من الدراهم يزداد وينقص بموجب حالة الزائر. فاستاء اليهود من ذلك يدَّعون ان يَكُونِيا ملكهم في سابق الزمان هو الذي بنى هذا المزار وعليهِ فهو راجع اليهم. فبعد اللَّتيا والَّتي توفَّق اليهود الى استرجاع المزار بارادةٍ شاهانيَّة لكننا لم نعثر على تاريخ هذه الإرادة. وبعد سنةٍ من حصولهم على المزار عقد الموسرون من الموسويين في بغداد لجنةً ليعيدوا الى المقام النبوي ماضيَ عزهِ وشهرتهِ فاوقفوا لهُ الاوقاف ونقضوا الحائط الذي كان الأعراب قد سدّوا بهِ القبر وجدَّدوا كنيس المزار واقاموا لخدمتهِ ربَّانيين يحافظون عليهِ وعلى اقامة السُنن الدينيَّة وفتحوا فيهِ كتَّابًا يختلف اليهِ ثلاثة عشرة من الطلبة اليهود واخذ الزوَّار يزدادون كل سنةٍ ليس من اليهود فقط بل من الاسلام والاجانب ورفعوا الضرائب بَتَّةً فازداد اليهود في اتخاذ السكنى في جوار المزار بعد ان كانوا قد اضمحلُّوا زمن سؤدد العشيرة البدويَّة فيهِ. وكثرت هناك المنازل والخانات ومنتديات الأُنس وأُعيد نهر الهنديَّة

الى عتيقهِ الاوّل فكثرت الحدائق والبساتين وتدفّقت المياه حتى كادت تُنعش الدفين والخلاصةُ اصبحت قرية الكفل جنّة نعيم. شُربُ أهلها تسنيم. وطعامهم كل لذيذٍ نفيسٍ كريم. بل:

وأطلقَ الطيرُ فيها سجعَ منطقهِ ما بين مختلفٍ فيها ومتّفقِ
والظلُّ يسترقُ بين الدَّوح خطوتهُ وللمياهِ دبيبٌ غيرُ مُستَرَقِ
والسُّحبُ تبكي وثغرُ البَرقِ مُبتسمٌ والطيرُ تسجع من تيهٍ ومن أنقِ
فالطيرُ في طربٍ والسُّحب في حَرَبٍ والماء في هَرَبٍ والغُصنُ في قلقِ

وفي مزار ذي الكفل منارةٌ يحكي عنها من رآها: ان من يصعد الى حوضها ويقبض بيديهِ على خشبتين بمنزلة مقبضين من الجهة اليُمنى واليُسرى ويهزّ المنارة فهي تهتزُّ اذا قال الواقف عليها: « ياسرّ سليمان بن داود » وقد هزّها بهذه الصورة طبّاخنا الحالي يعقوب ابن الشّماس يوسف وقد أكّد لي بانّها اهتزّت عند الكلم المذكورة. وقد رأى هذه المنارة بعض المهندسين من المسلمين والاجانب وقالوا انّها مبنيّة على صريقةٍ تدفع المنارة الى النَّوَسان بدون ان يكون ذلك بالعجوبةِ. فهذا هو اذًا السرّ لا ما زعم هؤلاء. والدليل على ذلك انك اذا فعلتَ فعلهم من القبض والهزّ ناست بك كما تنوس بالغير وان لم تتلفّظ بشيء

امّا صناعة اهل ذي الكفل فهي كصناعة اهل تلك الأنحاء التجارة والقايضة فيُوردون من كَرْبَلا السلَع اللازمة للأعراب ويبادلونها بالدوابّ والقطانيّ والحُبُوب

فنُّ البناء في آخر القرن التاسع عشر

للاب موريس كوانجت اليسوعيّ مدرّس الطبيعيّات في المكتب الطبي

لم يزل البناء يشغل افكار البشر منذ الامد المديد ولا عجب فانّهُ ليس لابن آدم بعد سدّ رمقهِ بالقوت اليومي واوواء غليلهِ همٌّ اعظم من طلب المأوى. وعليهِ انّنا نرى الشعوب جمعاء يتبارون في التأنُّق بالعمائر والابنية التي يتّخذونها لهم كُسكُنى

والحقّ يقال ان لبناء الدار شروطاً جمّة لا يقوم بها كثير من ارباب الهندسة.